تمثالا الدكتور فان ديك والدكتور ورتبات

— رفع الستار عنهما —

الساعة الرابعة بعد ظهر الجمعة الواقع في ١١ ابريل كان ميعاد رفع الستار عن تمثالي المرحومين الدكتور كرنيليوس فان ديك والدكتور يوحنا ورتبات . وما ازف الوقت المعين حتى كان منتدى المدرسة الكلية الكبير حافلاً بطلبة دوائر المدرسة العليا وفي مقدمتهم فريق من فضلاء الاجانب والوطنيين وجلس على منبر المنتدى الرئيس الشيخ الدكتور دانيال بلس واساتذة المدرسة واعضاء المؤتمر الطبي الثاني وهم نيف وثلاثون طبيباً من ابناء الكلية

ووضع التمثالان على الجهة البحري من المنبر تمثال الدكتور فان ديك يجللهُ العلم الاميركاني وتمثال الدكتور ورتبات يجللهُ العلم الانكليزي ونشر على الارغن الكبير العلم العثماني

وعند طول الوقت انتصب الدكتور بورتر الرئيس العامل في غياب الرئيس بلس واشار الى الدكتور مور الذي كان جالساً بازاء التمثالين ان يرفع الستار عنهما وما كاد يسقط الستار حتى نهض جميع الحاضرين اجلالاً وصفقوا طويلاً لظهور التمثالين ثم جلسوا واستأنف الدكتور بورتر الكلام فقال

« كنا نود كثيراً لو تمكن جناب الدكتور يعقوب صرُّوف ان يحضر بيننا بالذات بالنيابة عن متخرجي المدرسة الذين قدَّموا لها هذين التمثالين على انهُ قد تكرَّم فأرسل الينا خطاباً يشير الى ذلك ليتلى في هذه الحفلة وقد سألنا احد اعضاء المؤتمر الطبي المجتمعين معنا جناب الدكتور اسكندر مشاقه أن ينوب عن الدكتور صرُّوف بتلاوته »

فوقف عندئذٍ الدكتور مشاقه وتلا خطاب الدكتور صرُّوف وهذا هو : —

ايها الفضلاء

انتدبتني اللجنة التي اهتمت بعمل هذين التمثالين من ابناء المدرسة الكلية المقيمين في القطر المصري وسائر الاقطار لكي انوب عنها في تقديمها الى عمدة مدرستنا لتحفظ بهما تذكاراً خالداً لاستاذينا المرحومين الدكتور كرنيليوس فان ديك والدكتور يوحنا ورتبات اللذين علَّما وعملا والَّفا وصنَّفا ووعظا وارشدا مدة نيف على خمسين سنة كانا فيها مثال الفضيلة والتقوى وتبراس العلم والهدى وآية في نصرة الحق والقيام بالواجب

واني آسف جدًّا لانني لم اتمكن من الحضور بنفسي للقيام بهذا الفرض المقدَّس ولذلك رأيت ان اعرب عن غرض اللجنة بهذه الكلمات والتمس منكم الصفح عمَّا تروننهُ فيها من الاشارة

الى نفسي لان تلميذ الدكتور فان ديك والدكتور ورتبات لا يستطيع في مثل هذا الموقف ان يتجنب الاشارة الى علاقته بهما لشدة ما كان لسيرتهما من التأثير في تلامذتهما

لما عُرض على ابناء المدرسة الكلية المقيمين في القطر المصري ان يختاروا تذكاراً لاستاذينا الكريمين قالوا ان الغرض من اقامة التذكار انما هو نفع الاحياء من تلامذتهما ومريديهما بعد اظهار شكرهم لهما على ما نالوهُ وتالتهُ البلاد كلها منهما . واي شيء انفع لنا نحن الاحياء من ان نتذكر سيرتهما الفاضلة واي شيء انفع للذين يأتون بعدنا من ان يتذكروا اعمال الذين كانوا من اعظم اركان النهضة العلمية والادبية في بلاد المشرق . وهل مثل صورة الوجه لتذكر اعمال صاحبهِ — الوجه الذي هو مرآة النفس ومجلى الاخلاق . فاجمعوا على جعل التذكار تمثالين يمثلان وجهي الفقيدين

العمران ايها السادة والسيدات بناء نحن اشتغل بتشييدهِ الوف والوف الوف منذ اخذ الناس يتعلمون لكنهم لم يتساووا في ما فعلوهُ بل كان منهم المجلّون الذين عمل الواحد منهم اكثر مما عملهُ الوف . هؤلاء هم قادة الافكار ونبراس الهدى والمعلمون الذين جمعوا اثمار الاختبار ولم يكتفوا بجمعها والتمتع بها بل بسطوها على موائد عصورهم وحثوا الناس على مشاركتهم في الانتفاع بها مثل سقراط وافلاطون وارسطوطاليس وكنفوشيوس وبطليموس وجالينوس والغزالي والرازي وابن سينا وابن رشد واسحق نيوتن وفرنكلين وباستور ولستر ومئات غيرهم

ومن اول مقومات العمران واخص مميزاتهِ حفظ الاختبار والبناء عليهِ وبذلك صارت معارف الناس كتاباً متصل الفصول يبتدئ التالي منها حيث انتهى الاول وسلسلة محكمة الحلقات من امسك بالحلقة الاخيرة منها كأنهُ امسك بها كلها

ومن اشرف خلال الانسان واولها على شرف نفسهِ الاعتراف بفضل المحسنين اليهِ المتفضلين على ابناء نوعهِ . فتذكار المعارف والاعتراف بالموارف دعامتا العمران وهما اللذان اقاما التماثيل للفلاسفة المتقدمين والمتأخرين ولقادة الجيوش ورسل السلام . فعسى ان تشيع بيننا هذه العادة الحميدة وان نحسن الاختيار فلا نجمع بين الغث والسمين فتضيع الفائدة المقصودة

وكتلميذ لاستاذينا الكريمين وصديق لهما حتى الممات اسمحوا لي ان اشير الى بعض مزاياهما التي يجب ان لا تبرح من اذهان ابناء المدرسة الكلية وكل محبيها والتي يراد ان يذكرنا هذان التمثالان بها

الدكتور فان ديك مثال العلم والتدقيق . واللطف والدعة . ومحبة الحق والمجاهرة بهِ .

وخوف الله وعمل الخير

مثال العلم والتدقيق — الطب وفروعهُ . الرياضيات وما يبنى عليها . الطبيعيات ومتعلقاتها . العربية وآدابها . واللغات الحية والميتة التي عرفها مع لغتهِ الانكليزية

وقع لي منذ مدة كتابان من كتبهِ احدهما كبير ضخم دقيق الحروف . قانون ابن سينا المطبوع في رومية العظمى منذ ٣٢٠ سنة فحسبت انني وقعت على كنز ثمين وجعلت اللّهُ واذا الدكتور فان ديك قد قلّبهُ بل درسهُ قبلي وابقى فيهِ آثار عملهِ وتدقيقهِ بما ترجمهُ فيهِ من الكلمات الطبية بما يرادفها في اللاتينية او اليونانية . والكتاب الثاني صغير الحجم جدًّا كأنهُ صُنع ليوضع في الجيب تذكرةً وهو دفتر بعضهُ بخطهِ وبعضهُ بخط اليازجي استاذهِ في العربية وكلهُ فصائد مشهورة ومقاطيع شعرية كتبها ليستظهرها

ولو تصفحنا كتبهُ الرياضية والطبيعية والدينية والادبية لوجدناها كلها على هذا النسق . واحر بمؤلف البائولوجيا والتشخيص الطبيعي والعروض والقوافي والجبر والهندسة والكيمياء والفلك ومترجم التوراة وابن حور ان يكون اماماً في كل العلوم

ومن من اخواني الذين كانوا في هذه المدرسة لما كنت فيها تلميذاً ومدرساً لا يتذكر الدكتور فان ديك في مرصدهِ او في المستشفى وفي حلقة التدريس او دار الطباعة وفي مكتبتهِ او حديقتهِ وعلى منبر الوعظ او دكة الخطابة — حياة كلها همة ونشاط وعمل نافع وخير عميم

اما لطفهُ ودعتهُ ففي غنى عن الوصف . ومن من كل معارف الدكتور فان ديك لا يتذكر ذلك اللطف وتلك البشاشة ذلك الانس وتلك المحاضرة . الامثال الفكاهية والاشعار الحكمية . لا اعرف خاطراً احضر من خاطرهِ . كأنّ امثال العرب وفكاهات العامة عالقة كلها بذهنهِ ترد الى لسانهِ كلما اقتضتها الحال . وليس امثال العرب فقط وجوامع كلمهم بل امثال الانكليز واليونان والرومان . لم ينطق بلساننا اجنبي افصح من الدكتور فان ديك ولا اعرف احداً كان اسرع منهُ خاطراً او اقوى ذاكرةً او ابش وجهاً او اكثر دعةً . اذا قابلتهُ بعد ان غبتَ عنهُ السنين الطوال قابلك باشًّا وذاكرك في ما كان يذاكرك بهِ ويلذّ لك سماعهُ كأنك كنت معهُ بالامس . يزورهُ الملوك والامراء والرؤساء كقضاء فرض وهو ينادي خادمهُ « يا اخي فلان » لا عن تدنٍّ بل عن دعة ولين عريكة لانهُ كان قويًّا على الاقوياء لا يهاب احداً ولا يتزلف الى احد ولا يخاف في الحق لومة لائم

كان يحبُّ الحق ويجاهر بهِ واذا رأى احداً مرتديًا ثوب الرياء لم يخفِ عنهُ غيظهُ منهُ ولو كان من اكبر الكبراء

وكان خوف الله نصب عينيهِ والنظر الى عظمة الخالق دليلهُ في ارصادهِ الفلكية واشغالهِ الطبية ومواعظهِ الدينية

وعمل الخير يشهد لهُ بهِ الذين علَّمهم على نفقتهِ والذين طبَّبهم مجانًا والذين اعطاهم ثمن الدواء والغذاء والذين كانوا يعيشون من احسانهِ

ان رجلاً مثل الدكتور فان ديك لحقيق بان يكون قدوةً لكل احد في كل شيء في العلم والتدقيق في اللطف واللسعة في محبة الحق والمجاهرة بهِ في خوف الله وعمل الخير

واستاذنا الثاني الدكتور ورتبات تلميذ استاذنا الاول وشريكهُ وصديقهُ جاراهُ في كل شيء ونسج على منوالهِ ولم يختلف عنهُ الاَّ في ما يدعو اليهِ اختلاف المزاج . لم يبلغ مبلغهُ في العلوم الرياضية والطبيعية فلم يؤلف فيها ولا رصد الافلاك ولا حلَّل نور الشمس ولكنهُ جاراهُ في العلوم الطبية ونافهُ في بعضها ولا تزال الاعضاء التي شرَّحها واظهر ادق عروقها وانسجتها في معارض المدرسة الطبية دليلاً على تفوُّقهِ في علم التشريح . وابقى في العربية كتابين عليهما جليلين كتاب التشريح وكتاب الفسيولوجيا عدا الكتب الصحية التي وضعها للجمهور

الدكتور فان ديك غربي استشرق والدكتور ورتبات شرقي استغرب . كما امتلك الاول ناصية العربية كأنها لغتهُ التي ولد فيها امتلك الثاني ناصية الانكليزية . رأيت الدكتور ورتبات اول مرة في مدرسة عبيه منذ ثمان وار بعين سنة فوعظ بالعربية بلغة فصحى ووعظ في ذلك اليوم عينهِ بالانكليزية بلغة لا تقلُّ عنها فصاحة كما قال ابناؤُها . وقد ابقى من الكتب في اللغتين ما يشهد لهُ بطول الباع فيهما

تراهُ بادئَ بدء فتظنهُ عبوسًا شديد المراس ولكنك لا تلبث ان تكلمهُ حتى تراهُ من افكه الناس حديثًا والينهم عريكة كأن الانس والبشاشة تجسما فيهِ ولم يدلُّ وجههُ عليها . اختار لسكناهُ بيتًا في بيروت لهُ حديقة واسعة ملأها ببديع الازهار والرياحين وكان يعمل فيها بيديهِ ومهَّد فيها ساحة للالعاب الرياضية كنت تراهُ فيها يلاعب الشبان كأنهُ واحد منهم

كان الحق بغيتهُ ومعبودهُ ولكنهُ لم يكن شديد الوطأة على اصل الشر كما كان استاذهُ الدكتور فان ديك بل كان يلتمس لهم الاعذار . ولقد سرَّتهُ الكلمة العامية « ليصطفلوا » فقال ان اصلها « ليفتصلوا » وكان يقولها كلما رأى خللاً في قوم يتعذَّر عليهِ اصلاحهُ

وكان خوف الله نصب عينيهِ دائمًا وطالما جعل موضوع مواعظهِ « ايها الشاب اذكر خالقك في ايام شبابك » . او « التقوى لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة »

اما عمل الخير فلم يفقهُ فيهِ احد . اخبرني رجل اثق بصدقهِ قال دعوتهُ لمعالجة زوجتي وكان

داؤها مزمناً فجعل يعودها مرةً كل يوم وانا ادفع اليهِ اجرة العيادة يوماً فيوماً . وثقُل ذلك عليَّ لضيق ذات يدي فقلت لهُ يوماً الا يمكن جعل الزيارة مرةً كل يومين فنظر اليَّ مفكراً وقال لي ما عملك وكم راتبك فاخبرتهُ فجاءني في اليوم التالي ومعهُ كل النقود التي اخذها مني واوجب عليَّ استرجاعها و بقي يعود زوجتي و يعالجها ويجلب لها الدواء الى ان شفيت ولم يأخذ مني غرشاً

وكان يربأ بنفسهِ ان يرى نفعاً ولا يشرك غيرهُ فيهِ فلم يطلع علي مقالة مفيدة في اللغة الانكليزية الاَّ ودَّ نقلها الى العربية وكثيراً ما كان يترجم المقالات بنفسهِ او يشير عليَّ بترجمتها ونشرها في المقتطف . ومن هذا القبيل الامثال العربية التي ترجمها الى الانكليزية والامثال الانكليزية التي ترجمها الى العربية وغرضهُ من ذلك نشر الفوائد والنفع للناس لا الفائدة لنفسهِ

وخلاصة القول انهُ والدكتور ڤان ديك صنوان متماثلان في العلم والتدقيق واللطف والدعة ومحبة الحق وخوف الله وعمل الخير

فهذان التمثالان ايها السادة والسيدات يمثلان لكم ذينك الفاضلين اللذين اسَّسا مع رصيفهما استاذنا المرحوم الدكتور بوست القسم الطبي من هذه المدرسة وهو لا يقل عنهما علماً وتدقيقاً وقد ينوقهما همة واجتهاداً . ولهما وله الفضل الاكبر في هذه النهضة العلمية الادبية في بلادنا الشرقية . وعسى ان يكون النظر الى هذه التماثيل الثلاثة والى التمثال الرابع السابق لها تمثال رئيسنا الاول الدكتور بلس اكبر محرّض لتلامذة المدرسة الكلية على الاقتداء باساتذتهم في كل ما هو صالح نافع يعقوب صرّوف

ثم وقف الدكتور بورتر وخاطب الحاضرين بالعربية فقال

« يجب عليَّ بالنيابة عن رئيس المدرسة النائب وعن العمدة وعن دائرة الامناء في اميركا وعن سائر اصدقاء المدرسة الكلية ان اقبل هذين التمثالين اللذين يمثلان لنا وجهي ذينك الاستاذين الفاضلين الدكتور فان ديك والدكتور ورتبات وان أُقدم للدكتور صرّوف ولسائر رفقائهِ الذين اشتركوا باقامة هذا الاثر الجميل مزيد الشكر لاجل هذه التقدمة الجليلة التي تليق بذينك الرجلين العظيمين اللذين كانا من مؤسسي مدرستنا الطبية ومن اركان نجاحها مدة سنين عديدة

ويسرنا ما قالهُ الدكتور صرّوف في خطابهِ البليغ ان الغرض من تقديم هذه الهدية للمدرسة الكلية انما هو تخليد ذكر ذينك الاستاذين العظيمين ونفع الذين يأتون بعدهما امثالنا لكي تظل رؤية وجهيهما باعثاً لنا على اقتفاء آثارهما والنسج على منوالهما . هذا فضلاً عما في هذه الهدية من دلائل محبة المتخرجين واكرامهم لاساتذتهم وللمدرسة امهم "Alma Mater" التي ربتهم

وغذّت عقولهم بلبان العلم والمعرفة وجهزتهم للعمل والجهاد في هذه الحياة لمنفعة الناس

واسمحوا لي ايها السادة ان اقول كلمة شخصية في هذا المقام بالنظر لكوني مع رئيس المدرسة الاكرامي الدكتور دانيال بلس آخر من تبقّى في هذه المدرسة من الاحياء ممن عاصروا واشتغلوا مع المرحومين صاحبي هذين التمثالين. جئت الى هذه المدرسة شابًّا من زهاء ثلاث واربعين سنة فكنت انظر الى ذينك الاستاذين كما ينظر الابن الى ابيهِ واطلب منهما النصح والارشاد كما يطلب التلميذ نصح معلمهِ وارشادهُ. ولذلك فاني استطيع ان اقدّر قدر الكلام الذي قالهُ فيهما الدكتور صرّوف وفي مزاياهما الشهية فقد استفدت منهما فوائد عظيمة كما استفاد هو وسائر تلامذتهما. واني احسبهُ من مسرّات حياتي وبركاتها في هذه الدنيا أني وُفّقت ان تعرّفت بالمرحومين الدكتور فان ديك والدكتور ورتبات وكنت شريكاً لهما في خدمة هذه المدرسة فاكرّر الشكر والثناء على حضرات المتخرجين الذين ذكروا مدرستهم واساتذتهم بهذه الهدية الثمينة وفيها ما فيها من دلائل المحبة والاكرام

بقي عليَّ كلمة خاتمة اقولها بالنيابة عن عمدة المدرسة. يعلم البعض منكم انهُ لما استقال المرحوم الدكتور فان ديك من منصبهِ كاستاذ في المدرسة الكلية سنة ١٨٨٣ استاء لذلك عدد من تلامذتهِ وخصوصاً من صف المنتهين في الدائرة الطبية فخرجوا من المدرسة واكملوا دروسهم في غير الكلية ونالوا شهاداتهم من المكتب الطبي في الاستانة فبمناسبة هذا الاحتفال قررت العمدة ان تضم اسماء اولئك الطلبة الى اسماء رفقائهم مخرّجي سنة ١٨٨٣ بحيث يصيرون من الآن فصاعداً في عداد مخرجي الدائرة الطبية في المدرسة الكلية. وهذه هي اسماؤهم مع حفظ الالقاب: — اسكندر بارودي. جرجي باز. سليم جريديني. باخوس الحكيم. ابرهيم صيلبي. حبيب كحيل. ابرهيم مطر. انطون نوفل. فؤاد شهاب. ابرهيم ثابت »

ثم تكلم الدكتور بورتر بالانكليزية بملخص ما قالهُ لفائدة الذين لا يفهمون العربية

وقبل اختتام نهض الدكتور سليم بك حلخ واثنى على فكرة العمدة وشكر لها قرارها بشأن المتخرجين الاطباء ورجا ان يكون قرارها هذا شاملاً ايضاً الصيادلة [1] الذين خرجوا في ذلك العهد لسبب نفسهِ ثم وقف الجميع وانشدوا نشيد الكلية وكان ذلك خاتمة الحفلة

وفي اليوم التالي نُقل التمثالان الى قاعة الاستقبال العمومية في بناية ضودج وسيبقيان هناك اثراً خالداً يمثّل حاسّات من قدموها واحترامهم لذينك الاستاذين الكريمين اللذين خدما العلم والبلاد خدمة يتعذر مثالها

بولس الخولي

(١) علمنا بعد الحفلة ان قرار العمدة يشمل الصيدليين انطونيوس منسي وانسيم بدون رزق الله